

## القدس ١٩٤٨: المدينة المهجرة\*

سليم تماري\*\*

الطالبية والبقعة والقطمون وعين كارم ولفتا، إلى جانب قرى وضواح كثيرة مثلها، تم تدميرها وإجلاء سكانها عن القدس الغربية وكاد التاريخ ينساها، بعد أن احتلت واستوطنت بعد نكبة ١٩٤٨.

وطوال خمسين عاماً بقيت ذكرى هذه القرى والضواحي مشتتة في أذهان عشرات الآلاف من الفلسطينيين الذين تم اقتلاعهم ووجدوا أنفسهم فجأة في الجانب الآخر من حدود الهدنة، ثم في عمان وبيروت ودمشق، وفي شتات عربي وأجنبي أبعد من ذلك. وكما حدث في مدن وقرى الساحل، قامت القوات اليهودية بإجلاء كل السكان العرب عن الضواحي الغربية والقرى، وبطردهم شرقاً. ولم يسلم من هذا المصير سوى قرיתי أبو غوش وبيت صفافا.

وقد انفرد الكاتب المقدسي الأرمني جون روز، الذي استطاع البقاء في البقعة بعد الاحتلال، بالكتابة عن مصير هذه الأحياء ومصير القلة القليلة من العائلات غير اليهودية التي لم يجر طردها (معظمها من الحراس والعاملين في أديرة المنطقة). فهو يقول: "في أواخر سنة ١٩٤٨ تم نهب جميع البيوت العربية التي أُجلي سكانها ولم يبق فيها أثاث أو شيء يذكر. أمّا نحن الباقين فقد شارفت أعصابنا على الانهيار وأصبحت حياتنا شبيهة بمعسكرات الإبادة على حفة ميدان المعركة."<sup>(١)</sup> أمضى روز أربع سنين في حي البقعة، حتى سنة ١٩٥٢، ثم اجتاز بوابة مندلبوم الفاصلة لخط الهدنة وانتقل إلى ما أصبح يسمى، فيما بعد، القدس الشرقية. وبقيت قصة حياته شهادة فريدة لمصير أحياء القدس الغربية في زمن الحرب.

وفي الجانب الآخر، في عملية اقتصرت على بضع مئات من السكان اليهود تم إجلاء القاطنين بالحي اليهودي إلى الجانب الإسرائيلي. بعدها أصبحت خطوط الهدنة، أول مرة في التاريخ الحديث للمدينة، هي الحدود الفاصلة بين التجمعات الإثنية، حدود

\* مقدمة كتاب سيصدر بالإنكليزية قريباً عن مؤسسة الدراسات المقدسية في القدس العربية بعنوان:

*Jerusalem 1948: The New City's Arab Neighbourhood and its Fate in the War.*

\*\* مدير مؤسسة الدراسات المقدسية في القدس، وأستاذ مشارك في قسم علم الاجتماع في جامعة بيرزيت.

(١) John H. Melkon Rose, *Armenians of Jerusalem: Memories of Life in Palestine* (London: Radcliffe Press, 1993).

## العرب واليهود.

يهدف هذا الكتاب إلى إعادة صوغ عملية الطرد والنزوح التي أصابت أهالي القدس، وإلى رسم عالمهم الباهي الذي دمته الحرب. كما يهدف إلى استعادة نسيج الحياة اليومية في القدس؛ هذه الحياة التي طغى عليها، لاحقاً، وموّه رؤيتها الجدل القومي - والصهيوني تحديداً - بشأن الهوية الدينية للمدينة وجغرافيتها المقدسة. واستعادة ما هو "طبيعي" هنا هو استعادة مدينة حيّة متصارعة تتمايز بأحيائها وحراراتها وطوائفها، ويجمع بين سكانها، في النهاية، انتماءات مشتركة للمدينة الدينوية. فالمصير اللاحق للقدس قسمها إلى مدينتين: شرقية وغربية؛ عربية ويهودية، منقسمة قومياً وموحدة عسكرياً. وإذا نحاول أن نتجاوز هذا التقسيم في التحليل التاريخي، في اتجاه ما كانت المدينة عليه، إلا إنه يعود فيفرض نفسه علينا كوحدة تحليلية.

\* \* \*

في الصور التالية تظهر لنا المدينة في إطار غير معهود لنا اليوم. فهي مدينة يطغى عليها الحراك الاجتماعي، والتعددية الإثنية، وتباينات طائفية تعيش نهاية عصر ما قبل الحداثة، وعصبيات محلية تتجاوز حدودها الضيقة لمصلحة اعتماد متبادل وتضامن حضري. هذا المزيج المدهش من الإثنية الهجينة يتجلى في تعايش التقليدي مع المحدث، والعلماني مع الأصولي، الأمر الذي أضفى على المدينة ثقافة كوزموبوليتانية نجدها في العالم الفكري لخليل السكاكيني، الكاتب والمفكر المقدسي، الهارب من البلدة القديمة إلى حداثة القطمون.<sup>(٢)</sup> كما نجدها في الكثير من الكتابات المعاصرة واللاحقة للسكاكيني ولمؤلفين عرب ويهود وإنكليز عايشوا حقبة الانتداب أو استرجعوا طفولتهم فيها (أنظر: توماس هودجكن، "رسائل من فلسطين" (*Letters from Palestine*)؛ إدوارد سعيد، "طفولة في القطمون"؛ جون روز، "الأرمن في القدس" (*Armenians of Jerusalem*)؛ هالة السكاكيني، "القدس وأنا"؛ عاموس أوز، "جبل الشر" (*Hill of Evil Counsel*))، ونجدها أيضاً في المساهمات الإثنوغرافية في هذا الكتاب - مدينة بدأت تحبو نحو الحداثة، ثم شلتها الحرب عن مسارها.

تتعارض حيوية هذه الأحياء الغربية مع النمو التقليدي الحديث للمدينة خارج أسوار البلدة القديمة في اتجاه الشرق والشمال (وادي الجوز؛ باب الساهرة؛ الطور؛ الشيخ جراح). هنا بدأت عائلات أعيان وأشراف المدينة بناء منازلها الفخمة مع نهاية القرن الماضي. واتجهت قلة منها نحو الغرب (الشيخ علي الخليلي، آل النمري، آل الوعري)، حيث وجد أيضاً بعض الأحياء اليهودية الحديثة والسابقة للمشروع

(٢) خليل السكاكيني، "كذا أنا يا دنيا" (القدس، ١٩٥٨).

الصهيوني (من أهمها مشروع البارون إدموند دو روتشيلد في حيّ مونتفيوري وحي يمين موشيه قبالة جبل صهيون). إلا إن النمو الحقيقي لهذه الأحياء الغربية جاء مع النهضة الاقتصادية التي رافقت المشاريع العامة لحكومة الانتداب، وتبلور طبقة جديدة من التجار وأصحاب المهن وموظفي الدولة. واستفادت الطبقة الوسطى الفلسطينية من هذا التوسع، وخصوصاً عندما برزت أجهزة الدولة والجيش والشرطة داخل العاصمة في العشرينات، وساعدت على انتقال هذه الطبقة من اكتظاظ وتخلف البلدة القديمة إلى الضواحي البورجوازية الحديثة في القطمون والطالبية والبقة. كذلك استفادت الجالية اليهودية في القدس من اقتصاد الانتداب، فعززت نموها في رحافيا، وماقور حاييم، وتالبيوت. كما تكونت أحياء مؤلفة من عائلات ممتدة (النمري، والوعري، والشماعة)، وأحياء تعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون في جيرة حميمة ووثام (روميما، والمصرارة، ومثاه شعاريم).

تكونت الأحياء العربية من تشكيلات عدة ارتبطت بشبكات التضامن العائلي، وبعلاقتها بالسلطة العثمانية، وبمشايخ القرى المجاورة للقدس غرباً. نستطيع هنا أن نشير إلى ثلاثة عوامل تضافرت على دفع حركة الهجرة وال عمران إلى هذه الأحياء الجديدة: (١) إقطاعات الدولة العثمانية لعائلات معينة في مقابل خدماتها للدولة؛ (٢) توطيد الوقف العائلي في أرض متروكة غربي المدينة؛ (٣) تخصيص أراضي وقف الكنائس المسيحية (معظمها من أملاك دير الروم الأورثوذكس) لأتباعها من الطائفة من أجل إسكان العائلات التي ضاقت بها حارات المدينة داخل السور. ورافق مشاريع العمران العائلي العربي، في هذه الفترة، نمو عمراني حثيث قامت به مؤسسات الأديرة المسيحية (يوناني وفرنسي وإيطالي)، والمؤسسات الخيرية اليهودية، وتجمعات الألمان الهيكليين التي بدأت ترسيخ وجودها في التلال الغربية قبيل بداية القرن.

من أقدم مشاريع العمران الموثقة في أحياء القدس الغربية أحياء آل النمري وآل الوعري في البقة العليا والتحتا. بينما نجد أن أعيان القدس، مثل آل الحسيني وآل النشاشيبي والخطيب، امتدت سكناهم نحو الأحياء الشمالية - في اتجاه طريق نابلس. واكتسب آل النمري أراضي جديدة في العقد السابع من القرن التاسع عشر من مشايخ المالحة وبين جالا الذين ارتبطوا معهم - كما يبدو - بعلاقات تجارية.<sup>(٣)</sup> أمّا آل الوعري، فقد أقنعوا المتصرف العثماني بنقل أراضي ميرري في البقة الجنوبية (التحتا) إليهم وتم تسجيلها وقفاً ذرياً للوعرية كما هو الحال بالنسبة إلى النمامرة.<sup>(٤)</sup> وفي أواخر العشرينات ظهرت في المنطقة سوق خاصة بها (سوق النمري)، وتطورت فيما

(٣) طاهر النمري، "حارة النمامرة في البقة"، مخطوطة غير منشورة (القدس، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥).

(٤) المصدر نفسه.

بعد إلى سوق للجملة من أجل أن يتبضع فلاحو القرى المجاورة، وللبيع المفرق لأحياء النمامرة والوعرية.

أما ملكيات الأديرة والأوقاف المسيحية فقد أحدثت زخماً جديداً في نمو الأحياء العربية غربي المدينة، معظمها اعتمد على ملكيات الكنائس الأورثوذكسية، الروسية واليونانية، في المصراة والطالبية والقطمون. وهنا نجد نموذجين للتصرف في العقارات: الأول، تسجل عائلات أراضيها الموروثة كوقف كنسي لحمايتها من السلطة الحكومية (وخصوصاً في العهد العثماني)؛ الثاني، قامت الأديرة بتحويل ملكيات كنسية، عن طريق إيجارات طويلة المدى، أو قطاعات تملك، إلى أفراد الطائفة التابعة لها.

وما أن حلت الأربعينات حتى بدأت هذه الأحياء تلتصق بملكيات القرى المحيطة بها. وقد أدى هذا الامتداد إلى تبلور نمطين من العمران الجديد: الأول، بروز ضواح مدينية مريفة - أو بالأحرى قرى أصبحت تشكل حارات ممتدة للمدينة - كما هو الحال بالنسبة إلى لفتا والمالحة ودير ياسين وعين كارم؛ الثاني، تلاصق هذه الأحياء العربية ومستعمرات يهودية أشكنازية مثل ماقور حايم ومئاه شعاريم ورحافيا.<sup>(٥)</sup> وقد ساعد في اندماج اقتصاد القرية الفلسطينية ضمن البناء الحضري لمدينة القدس ازدياد الطلب على الأيدي العاملة الماهرة في قطاع البناء، واستيراد المادة الخام من محاجر هذه القرى. في مقابل ذلك ازداد تدفق المحاصيل الزراعية لهذه القرى على أسواق المدينة مع تحسن الطرق ووسائل النقل، وخصوصاً بعد إنشاء خط سكة الحديد بين يافا والقدس (مروراً بقرية بتير)، وتدشين خطوط باصات جديدة، ومد شبكة طرق مزفتة تربط المدينة بلوائها.

وقد شكلت مناطق "التماس" بالأحياء الجديدة (وهي المناطق بمحاذاة أحياء المصراة وروميما والطالبية) بدايات تجمعات يهودية - عربية مشتركة، حيث عززت أنماط التبادل والاعتماد الاقتصادي والمؤسسي أشكالاً من التعايش الاجتماعي. وفي خريطة الملكيات العقارية لسنة ١٩٤٦، التي أعدها سامي هداوي، يتجلى هذا الحيز المشترك بوضوح، وتتبين حقائق اجتماعية جديدة بشأن التوليفات الإثنية للمدينة. وتعكس هذه الخريطة واقع مدينة ما زالت منقسمة إلى مجموعات إثنية (ومن السابق لأوانه استعمال تعبير "قومية" في هذا المجال)، لكنها تقسيمات برزت من

(٥) يجب الحذر هنا من الاستعمال المغلوط فيه لكلمتي عربي ويهودي. فكثيرون من اليهود كانوا عرباً (بالمعنى اللغوي على الأقل)، ونسبة عالية من الفلسطينيين العرب كانوا في الواقع يتشكلون من أقليات غير عربية، مثل اليونان والأرمن. إلا إن المستعمرات المشار إليها هنا كانت، في الغالب، تتكون من اليهود الأشكناز الذين يتكلمون اللغة البيديشية في تعاملهم اليومي - ولا يمكن اعتبارهم عرباً في هذا الحال.

طياتها أنماط اجتماعية مختلطة ومشاركة.<sup>(٦)</sup>

نرى في كتابات المؤرخين العرب العلمانيين نزعة مبالغاً فيها إلى تصوير حالات الانسجام والإخاء بين عرب ويهود القدس قبل حرب فلسطين عامة وبروز التيار الاستيطاني الصهيوني خاصة (أنظر مثلاً: عارف العارف، "المفصل في تاريخ القدس"؛ محمد أديب العامري، "عروبة القدس"). في الجانب الآخر نرى في التاريخ الصهيوني نزعة إلى تصوير الصراع بين العرب واليهود كأنه تناقض أزلي يعود إلى غابر العصور. وفي أحسن الأحوال، يوضح هذا أن المجموعات اليهودية كانت محمية بصفقتها من أهل الذمة خلال الحكم العثماني والخلافات الإسلامية الأخرى في مصر وبلاد الشام. وفي الواقع، توضح العلاقات اليومية بين الجوالي اليهودية الفلسطينية والمواطنين العرب من مسلمين ومسيحيين في أواخر القرن الماضي - كما تم جمعها من مصادر معاصرة - أن الصورة أكثر تعقيداً، لكنها حتماً ليست صورة سلبية.

ساهمت سلطات الانتداب في تهيئة الأوضاع للاندماج الاجتماعي بواسطة أنماط الاستثمار والتوظيف والمشاريع العامة. ومع ظهور سمات الحداثة الثقافية وعولمة أنماط الحياة الأوروبية في الشرق الأوسط، نلاحظ بدايات "الحارات المختلطة" في يافا وحيفا وفي أحياء كثيرة من القدس، مثل روميما والشماعة والمصرارة. وفي مقابل هذه الأنماط أدى انتشار الأيديولوجيا والثقافة الصهيونيتين في أوساط المهاجرين اليهود إلى إحداث ردة فعل قومية في الأوساط العربية، الأمر الذي أضعف العلاقات الاجتماعية بين العرب واليهود بصورة عامة، وقوى العلاقات فوق - الطائفية (القومية) بين المسيحيين والمسلمين العرب. ومما سمح بتقوية هذه النزعة هو غياب الخلفية العربية واللغة العربية كلغة التخاطب في أوساط يهود القدس بعكس الوضع السائد في الخليل وطبرية وصفد، حيث توجد أغلبية من الطوائف اليهودية التي تتكلم العربية.

وفي جوهر الصراع الإقليمي في القدس كانت قضية تنظيم الأراضي وترسيم حدود البلدية في فترة الانتداب. إذ بينما شكّل الفلسطينيون العرب من مسيحيين ومسلمين أغلبية في لواء القدس كوحدة تشمل القرى والبلدات المحيطة بالمدينة، استطاع اليهود أن يصبحوا أغلبية السكان داخل حدود البلدية (سنة ١٩٤٧: ٩٩,٤ ألف يهودي في مقابل ٦٥,١ ألف عربي).<sup>(٧)</sup> وقد راجع المؤرخ البريطاني مايكل دمير الأدبيات الديموغرافية لفترة الانتداب وتوصل إلى تفسيرين لهذا التمايز في نسب

(٦) يُلفت نظر القارئ إلى أنه يجب الحذر من إقامة افتراضات بشأن التطابق بين حياة الملكيات في القدس وبين استئجارها أو استعمالها من قبل مجموعات إثنية أو طائفية.  
(٧) وليد مصطفى، "القدس عمران وسكان: من ١٨٥٠ - ١٩٩٦" (القدس: مركز القدس للإعلام والاتصال، ١٩٩٧).

## السكان.

الأول، إن الإحصاءات الانتدابية اعتادت احتساب المهاجرين الذين وصلوا إلى القدس قبل سنة ١٩٤٦، ثم انتقلوا بعدها إلى تل أبيب ومناطق أخرى، كأنهم باقون في القدس.

الثاني، إن هذه الإحصاءات استثنت من سكان القدس سكان الأرياف المحيطة بالقدس الذين يعملون في المدينة (مثلاً العاملين في المدينة من سكان لفتا ودير ياسين)، بينما احتسبت في الوقت ذاته السكان اليهود الذين يسكنون خارج حدود البلدية على أنهم من سكان المدينة (مثلاً سكان بيت فيغان ورمات راحيل وماقور حايلم)، وهي عملية التفاضلية مشوهة يسميها دمبر الإحصاء الديموغرافي الهيكلي<sup>(٨)</sup>.  
 إلا إن عملية الدمج والاستثناء الانتقائي للأحياء لم يكونا العامل الحاسم في التمييز بين تنظيم الحارات اليهودية والعربية في فترة الانتداب. فالعنصر الأهم نجده في طريقة تنظيم الأحياء. ذلك بأن مؤسسات اليبشوف اليهودي كانت حريصة على تنظيم الأحياء اليهودية الجديدة داخل حدود البلدية في المنطقة الغربية والشمالية الغربية للمدينة. وكانت تخطط لهذه الأحياء مسبقاً عن طريق مخططات هيكلية مدروسة قبل تطبيقها. هذا كان الحال بالنسبة إلى الكثير من "الأحياء الحداثق" كما كانت تسمى، مثل أحياء تالبيوت ورحافيا، التي صممها المهندس ريتشارد كوفمان<sup>(٩)</sup>. وتشير روشيل ديفيس، في دراستها عن نشوء هذه الأحياء، إلى الطابع المنظم والمبرمج لهذه الأحياء اليهودية، في مقابل أنماط البناء غير المنظم والمبني بمبادرات فردية وعائلية في الأحياء العربية الحديثة<sup>(١٠)</sup>.

\* \* \*

ثمة دراسات قليلة تعالج سير المعارك التي أدت إلى سقوط القدس الغربية وعملية طرد سكانها العرب سنة ١٩٤٨. وقد ساهمت مذكرات بهجت أبو غربية في إلقاء الضوء على الجانب العربي - الفلسطيني للحرب<sup>(١١)</sup>. وفي هذا الكتاب يصف ناثن كريستال

(٨) Michael Dumper, *The Politics of Jerusalem since 1967* (New York: Columbia University Press, 1997), pp. 61-62.

وبشأن موضوع تسجيل السكان بحسب مكان الولادة، أنظر:

Justin McCarthy, *The Population of Palestine: Population History and Statistics of the Late Ottoman Period and the Mandate* (New York: Columbia University Press, 1990), p. 165, Table A 8-14.

(٩) Dan Bahat, *The Illustrated Atlas of Jerusalem* (New York: Simon and Schuster, 1990), pp. 131-132.

(١٠) Rochelle Davis, "Ottoman Jerusalem: The Growth of the City outside the Walls," in *The New City's Arab Neighbourhood and its Fate in the War* (Jerusalem: Institute of Jerusalem Studies), Forthcoming.

(١١) بهجت أبو غربية، "في خضم النضال العربي الفلسطيني: مذكرات المناضل بهجت أبو غربية

الجانب العسكري للاستيلاء على القدس الغربية وعملية تهجير سكانها العرب. كما أضفنا في الملحق مذكرات قسطنطين مافريدس، موظف القنصلية اليونانية في القدس خلال الحرب، الذي دونّ عملية إجلاء سكان القطمون والبقعة إلى البلدة القديمة، والإجلاء المعاكس لسكان الحي اليهودي في اتجاه القدس الغربية. وقد غطت هذه المذكرات الفترة بين ١٤ أيار/مايو و٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨، وترجمها عن اليونانية حنا طليل، وساهمت مقدمة موسى البديري في وضعها في سياقها التاريخي.<sup>(١٢)</sup>

من القضايا المنهجية التي واجهتها هذه الدراسة مشكلة تكوين التجمعات العربية في القدس في فترة ما قبل الحرب. ذلك بأن تعبير "القدس الغربية" في حد ذاته إشكالي، إذ إنه يشير إلى حيز جغرافي تكوّن نتيجة رسم خطوط الهدنة سنة ١٩٤٩ ولا يوجد له وجود اجتماعي قبل ذلك. فالأحياء العربية التي أنشئت غربي المدينة في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، كما هو الحال بالنسبة إلى امتدادات قرى عين كارم ولفتا والمالحة، لم تتبلور كجسم اجتماعي أو إداري مستقل خارج علاقتها الإدارية بالبناء الحضري للمدينة ككل، وخارج شبكة العلاقات الاقتصادية التي ربطت القدس بمدينتي حيفا ويافا. وبما أنه من أهداف هذه الدراسة أن تعين مصير هذه الأحياء وسكانها بعد الحرب، فقد قررنا أن نستعمل تعبير "القدس الغربية" بمعناه الحالي، والذي ظهر بعد سنة ١٩٤٨، بهدف إعادة صوغ تشكيل هذه الأحياء وتقويم مصير ممتلكاتها ولاجئها.

كما تظهر مشكلة أخرى جراء استعمال إشارات الهوية القومية. فكلمة "فلسطيني" في الفترة الانتدابية كانت تشير إلى المواطنين العرب واليهود من سكان المدينة. وطبعاً، فإن كلمة "عربي" تبلورت لتشير إلى السكان المسيحيين والمسلمين معاً، في مقابل يهود فلسطين، الذين أخذوا - وخصوصاً بعد ثورة ١٩٣٦ وازدياد الهجرة اليهودية من أوروبا الفاشية - يتماثلون مع الحركة الصهيونية وأهدافها. ومما زاد في تعقيد هذه المسألة أن أعداداً كبيرة من يهود فلسطين، وخصوصاً يهود صفد وطبرية والخليل، وقسماً لا يستهان به من سكان يافا وحيفا والقدس اليهود، كانوا يتكلمون العربية بصفتها لغتهم الأم. من جهة أخرى عاشت في القدس مجموعات فلسطينية أخرى لم تعرّف نفسها ضمن اليهودية أو العربية، لكن أفرادها كانوا فلسطينيين قبل كل شيء، ومن هؤلاء: الأرمن واليونان والسريان والحبش في البلدة القديمة، والألمان

١٩١٦ - ١٩٤٩" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩٣).

Constantine Mavrides, "Jerusalem Diaries: Old City May 14-December 30 1948," *Nea Sion*, 1948.

تصدر المجلة عن بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس (باليونانية).

الهيكلين في البلدة الجديدة. فهؤلاء كلهم كانوا مقدسين وفلسطينيين، مع أنهم لم يحصلوا على الجنسية الانتدابية، ولا يجوز أن نستعمل تعبير "فلسطيني عربي" في الإشارة إليهم. فالحل الأمثل لهذه الحالات أن نستعمل تعبير "عربي" إشارة إلى المقدسين المسيحيين والمسلمين الناطقين بالعربية بصورة عامة، وأن نستعمل التعبير المذهبي (مسلم، ويهودي، وكاثوليكي، وأورثوذكسي) عند معالجة أوضاعهم الطائفية، كما هو الحال في الملكيات الوقفية مثلاً. وبما أن المؤسسات المذهبية أدت دوراً حاسماً في نمو وامتداد أحياء القدس في الاتجاه الغربي، فإن هذا الاستعمال مبرر تاريخياً وإن كان يبدو إشكالياً بمقاييس اليوم. ولا شك في أن "الضحية الأولى" لهذه الاختزالات في استعمال المفاهيم الإثنية هي الأقليات الفلسطينية من غير العرب واليهود (مثل الأرمن واليونان)، التي سرعان ما تذوب هويتها ضمن المجموعات الدينية والإثنية الأخرى.

إن احتفال الحركة الصهيونية بالذكرى الخمسين لإنشاء دولة إسرائيل، وإحياء الفلسطينيين ذكرى النكبة يثيران الجدل مجدداً بشأن أسباب وظروف هجرة اللاجئين وتشتتهم. وتعالج هذه الدراسة، بالتفصيل، الأوضاع التي سبقت الحرب، والعمليات العسكرية التي أدت إلى اقتلاعهم من أحيائهم وقراهم وتشتيتهم في أنحاء المعمورة كافة. وأخيراً، تحلل مسألة الأراضي والملكيات الأخرى التي صنفتها لجنة التوفيق الدولية بشأن فلسطين. ولا شك في أن مسائل كثيرة تواجه أية محاولة للوصول إلى تقويم شامل لهذه الملكيات، ذلك بأن التسوية التي بدأها العثمانيون لتسجيل أراضي فلسطين سنة ١٨٥٨ لم تكن اكتملت في الفترة الانتدابية. وبالتالي، فإن سجلات الطابو لا تغطي هذه العقارات كافة. وعلى الرغم من ذلك، فإن في الإمكان توثيق معظم هذه الملكيات من خلال سجلات الضرائب المدفوعة حتى في الحالات التي تغيب فيها سجلات الطابو. وقد قام الباحث سلمان أبو ستة، من خلال بحثه الدقيق بشأن أملاك اللاجئين الفلسطينيين، بتوفير ملخصات إجمالية لهذه العقارات.<sup>(١٣)</sup>

أمّا مصير اللاجئين وأماكن توزيعهم في الشتات فتبقى العملية الأصعب. وتحفظ وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) بسجلات مفصلة عن كل اللاجئين المستحقين للخدمات الاجتماعية والمسجلين في مناطق خدماتها الخمس (الضفة الغربية وقطاع غزة والأردن ولبنان وسورية). وبما أن قسماً كبيراً من لاجئي الضواحي الغربية للقدس يتحدر من أبناء الطبقات الوسطى فإن أعدادهم لا تظهر بدقة في هذه السجلات نتيجة ابتعادهم عن تسجيل أنفسهم في سجلات الأونروا، وبناء عليه فإن الأرقام التي نوردها أدناه يجب أن تعامل بحذر.

Salman Abu Sitta, *Palestinian Property in West Jerusalem*, Forthcoming, 1999. (١٣)



إن نظام التسجيل الموحد الذي أنشأته الأونروا سنة ١٩٧٩ في فيينا (U.R.S.) يشمل معطيات عن أربع فئات من لاجئي الضواحي الغربية للمدينة، وعن فئة خامسة من لاجئي قرى اللواء.<sup>(١٤)</sup> أمّا الفئات المدنية فهي: "لاجئو المدينة الجديدة"؛ "القدس - عام"؛ "فقراء القدس"؛ "القدس - البلدة القديمة". وتشمل آخر فئتين سكان القدس الذين قضت الحرب على مصادر دخلهم من دون أن تشردهم من مساكنهم (وهم بذلك أقرب إلى وضع القرى الحدودية في الضفة الغربية وقطاع غزة). ومن أجل معرفة مصير أهالي المدينة في حرب ١٩٤٨، قمنا بعزل أول فئتين وتحليل معطياتهما في الجدول التالي:

لاجئو مدينة القدس (الضواحي الغربية)  
في حرب ١٩٤٨ - بحسب منطقة اللجوء

مكان اللجوء الحالي	مولود قبل كانون الثاني/يناير ١٩٤٨	مولود بعد كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨	المجموع
الضفة الغربية	١٢,٤٢٧	٤١,٢٢٦	٥٣,٦٥٣
قطاع غزة	٢٩٦	٥١٥	٨١١
لبنان	٧٠٧	٧٠٣	١٤١٠
الأردن	٨٤٢٠	١٨,٠٧٧	٢٦,٤٩٧
سورية	٩٧٨	٩١٩	١٨٩٧
المجموع العام		٨٤,٢٦٨	

المصدر: المعطيات مستقاة من: الأونروا - دائرة الخدمات الاجتماعية، "نظام التسجيل الموحد" (URS)، عمان، أيار/مايو ١٩٩٧. (تشمل المدينة الجديدة والقدس - عام وتستثنى البلدة القديمة و"فقراء القدس" وقرى القدس). وتشمل هذه الإحصاءات جميع اللاجئين المسجلين وذريتهم ممن هم في قيد الحياة اليوم ولا تشمل المتوفين.

تبيّن هذه المعطيات أن لاجئي مدينة القدس في حرب ١٩٤٨ ما زالوا يقطنون، في معظمهم، بالضفة الغربية. كما أن معظمهم موجود، اليوم، في القدس العربية وضواحيها، وفي رام الله وبيت لحم.<sup>(١٥)</sup> وتشمل الأردن ثاني أكبر تجمع، نحو نصف محتويه الضفة الغربية. أمّا قطاع غزة وسورية ولبنان فيشمل باقي هذه التجمعات. وتبين إحصاءات الأونروا، في المقابل، أن مجمل عدد اللاجئين من القرى المقدسية وأبنائهم من الأحياء قد بلغ ١١٠,٤٣٩ لاجئاً سنة ١٩٩٧، ومن هؤلاء يقطن نحو

(١٤) UNRWA Registration Manual (Codes), 95/10 (Amman: HQ, no date).

يشمل هذا الدليل لائحة بأسماء المدن والقرى والخراب ومضارب البدو. (١٥) الأونروا - دائرة الخدمات الاجتماعية، "نظام التسجيل الموحد" (URS)، عمان، أيار/مايو ١٩٩٧. قمنا باستثناء فئات الفقراء؛ "فقراء القدس" والبلدة القديمة من الإحصاءات. وبناء عليه، فإن النتيجة تشمل النازحين الذين طردوا من المناطق التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ فقط.

الثلاثين تقريباً (٧٣,٩٠٨ لاجئين) بالأردن، ويقطن الثلث (نحو ٣٦,١٣٠ لاجئاً) بالضفة الغربية.<sup>(١٦)</sup>

ماذا تعني هذه الإحصاءات؟

أولاً: إن لاجئي القدس، في معظمهم، استقروا بمناطق بمحاذاة أو بالقرب من بيوتهم الأصلية. وهذا ينطبق على اللاجئين من الأحياء الغربية للمدينة خاصة، وهم أفضل حالاً من إخوانهم الريفيين، وبالتالي، أكثر قدرة على توثيق ممتلكاتهم المصادرة؛ إذ بقي هؤلاء قريباً من أراضيهم الأصلية.<sup>(١٧)</sup>

ثانياً: إن معظم اللاجئين الأكثر فقراً من قرى لواء القدس - وعددها ٣٩ قرية - اختار طريقاً أكثر تعقيداً في النزوح وسعى للالتحاق بخدمات الأونروا في الأردن، حيث كانت إمكانات العمل أكثر توفراً في عمان وإربد والزرقاء، وخصوصاً بعد سنة ١٩٦٧ حين انتشرت الهواجس في أوساط اللاجئين بشأن استمرار أعمال الأونروا وخدماتها في المناطق التي سيطر عليها جيش الاحتلال الإسرائيلي. إضافة إلى ذلك كان هناك الخوف التقليدي من العمليات الحربية الذي دفع المدنيين العزل إلى البحث، باستمرار، عن مناطق أكثر أماناً.

إن لهذه الأرقام دلالات مهمة على استحقاقات اللاجئين المقدسي، ونحن مقبلون على مفاوضات الحل النهائي. وبغض النظر عن تراجع الوضع السياسي في هذا المجال، فمن واجبنا أن نضع الأدلة والبيانات في مكانها تمهيداً لتحضير ملفات هذه المستحقات. والاستنتاج الأساسي لهذه المعطيات هو أن قسماً كبيراً من المهجرين لا يزال يقطن بالقسم العربي من المدينة المحتلة، أو في كثير من الأحيان بضواحي المدينة، في الوقت الذي قامت السلطات الإسرائيلية بإنشاء أو بتوسيع مناطق استيطانية يهودية في البلدة القديمة (الحي اليهودي)، وفي سلوان، وفي راس العمود، وفي النبي يعقوب، وفي عطروت، وفي الثوري، وكلها مناطق كان لليهود فيها بعض الملكيات قبل سنة ١٩٤٨، أو كان لهم مطالب مبنية على أحياء مستأجرة. هذا التباين في المطالب والاستحقاقات يأتي على خلفية مفارقة مهمة، ذلك بأن استحقاقات الفلسطينيين فيما يتعلق بأراضيهم وعقاراتهم في غربي المدينة المحتل، وبقرام المحيطة والمهدمة، موثقة تماماً كما توضح هذه الدراسة، سواء أكان ذلك في سجلات الأراضي (الطابو)، أم في سجلات الضرائب، أم في وثائق لجنة التوفيق الدولية بشأن

(١٦) المصدر نفسه. استثنينا من هذه الإحصاءات جميع القرى التي لم تحتلها إسرائيل في لواء القدس سنة ١٩٤٨، لكننا أدخلنا اللاجئين من قريتي أبو غوش وبيت نقوبا.

(١٧) للحصول على معلومات عن مواطني القدس العربية المتحدرين من أصول لاجئة من القدس الغربية ومن مناطق أخرى احتلتها القوات الإسرائيلية سنة ١٩٤٨، أنظر: المكتب الإسرائيلي للإحصاء المركزي، "تعداد السكان والبيوت لعام ١٩٦٧" (القدس، ١٩٦٨)، الجدولان ١٧ و١٨. "عدد السكان فوق سن ١٥، حسب منطقة السكن قبل عام ١٩٤٨".

**فلسطين (١٩٥١ - ١٩٦٤).**

وبما أن الحكومة الإسرائيلية لا تكل عن إعلان القدس مدينة "موحدة وغير قابلة للتقسيم"، ويتبع ذلك أن قوانين الدولة تطبق على شقي المدينة، الغربي والشرقي منها، فإن هذه المفارقات في التطبيق الانتقائي والعنصري للحقوق التاريخية أصبحت مثيرة للسخرية. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>